الفصل السابع

الأقنعة المعاصرة

ليس من الضروري أن يكون القناع مستمداً من التاريخ القديم، فهنالك شخصيات تاريخية لا تصلح أن تكون أقنعة، لأنها لا تمثّل دوراً نهضت به أو قيماً جسّدتها، وبالمقابل فإنه يمكن اتخاذ شخصيات معاصرة أقنعة ما دام لها دورها وحضورها الفاعل في حركة الحياة، كما نجد في شخصيات: لوركا، وغيفارا، ونيرودا، وجميلة بوحيرد، وحفصة العراقية، وغيرهم. ذلك أن استشهاد هؤلاء منحهم حياة خالدة في الضمير القومي والإنساني، وحوّلهم إلى رموز مفعمة بالمعاني السامية، مشابهة للأنماط الهاجعة في اللاوعي الجمعي.

وأكثر ما نجد توظيفاً للأقنعة المعاصرة لدى البياتي الذي يشير إلى ذلك بقوله: «إن شخصية غيفارا وهاملت وبيكاسو وهمنغواي ومالك حداد وجواد سليم والبير كامي وناظم حكمت وعبد الله كوران وعائشة... التي اخترتها حاولت أن أقدم البطل النموذجي في عصرنا وفي كل العصور، في موقفه النهائي»[1].

ولكن قول البياتي هذا غير دقيق «إذا اتخذنا هذا التعدد دون فحص، وصدقنا أن البياتي اتخذ من كل واحد من هؤلاء قناعاً»[2] فقصائد (عبد الله كوران)، و(إلى أرنست همنغواي)، و(إلى بابلو بيكاسو) ليست قصائد قناع.

ويمكن تصنيف الأقنعة المعاصرة في نوعين: أقنعة حقيقية، وأقنعة مخترعة.

---

[1] عبد الوهاب البياتي - ديوانه، دار العودة - بيروت 1971، ص 2 / 38. وسيرته: تجربتي الشعرية، ص 38.
[2] محيي الدين صبحي: الرؤيا في شعر البياتي، اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1986، ص 68.

1- الأقنعة الحقيقية:

هي شخصيات واقعية معاصرة يتقنّع بها الشاعر، ليعبّر - من خلالها - عن معاناته التي تشبه معاناة شخصية القناع. من ذلك شخصية الأديب الجزائري (مالك حداد) الذي كان يكتب بالفرنسية، ويقف إلى جانب الثورة الجزائرية، ضد الاستعمار الفرنسي، حتى تحقق الجلاء بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاستعمار الفرنسي للجزائر، وبعد أن دفعت الجزائر ثمن هذا الاستقلال أكثر من مليون شهيد.

وقد اتخذ البياتي شخصية مالك حداد قناعاً في قصيدته (إلى مالك حداد)[1] صوّر فيها من خلال قناعه، مشاعره نحو الإنسان المهان الذي صنع المعجزات، ولكنه أصبح - بعد نيل الاستقلال - أكثر مهانة، في ظل الحكم الوطني!!

أحسُّ بالإنسان / دبّاً يُحشى بالقش والدخان
يُباع بالمجّان / يحب بالمجّان / يكره بالمجّان / يُقتل بالمجّان / يموت بالمجّان
أحسّه خرقة على طاولة في حان / يُمسح فيه أيّما شيء.
أحسّ آه الإنسان / يركع في مزبلة التاريخ، في قاذورة النسيان

ومن الواضح أن البياتي يعبّر - من خلال قناعه - عن معاناته في وطنه، في تلك الفترة من حياته.

كما اتخذ بعض شعرائنا المعاصرين الشاعر التركي ناظم حكمت الذي سُجن في وطنه لوطنيته وتقدميته، ثم نُفي عن وطنه، فاتخذه البياتي قناعاً، لتماثل تجربتيهما: تجربة ناظم حكمت الحياتية، وتجربة البياتي الذي يقول:

مَنْ أيقظ الغارق في صلاته؟ مَنْ دقّ بابي؟ مَنْ؟
يا زورق الوسن
خذني إلى استامبول إني لم أمت، يا زورق الوسن...

ومن الواضح أن البياتي عندما يتحدث عن (ناظم) ومعاناته، فكأنما يتحدث عن نفسه، وعن عودته إلى وطنه مع عناصر الطبيعة: الماء، والطيور. فالماء هو أصل الحياة، والطيور هي علامة انتهاء الطوفان[2].

2- الأقنعة المخترعة:

وتتمثل في ما يخترعه الشاعر من شخصيات يتقنّع بها للتعبير عن مشاعره، مثل

---

[1] عبد الوهاب البياتي - ديوانه، دار العودة - بيروت 1971، ص1 / 721.
[2] ولصاحب خليل إبراهيم قصيدة قناع (السياب في لحظة الاحتضار) في ديوانه: حين يبتدئ الحب، دار الشؤون الثقافية بغداد 1983، ص159.

شخصية (حميد بن سعيد الغجري) التي اخترعها علي الجندي في قصيدته (من مكاشفات حميد بن سعيد الغجري)[1] وحمّلها همومه، وجعلها قناعاً تحدث من خلالها عن معاناته الحياتية، حيث يقول:

أسافر من مرفأ لمطار ومن حانة نحو مبغى!
إني أتعجّل موتي لكي أتوارى
وأستعجل اللحظات المذهّبة الوقع حتى أواري جنوني.

والشاعر السوري علي الجندي شاعر متفرد في بنائه الشعري في الأدب العربي المعاصر، صعب التناول. إذ يوحّد بين الأفق الفلسفي والموروث الصوفي. وشعره يتسامى عن الواقع ويتجاوزه. والحس الدرامي الفاجع يتفجر في شعره بالعجز: عجز عن إرواء جسده الذي لا يهدأ، وعجز عن تحقيق طموحاته السياسية، وهي طموحات المثقفين الأوائل الذين مارسوا السياسة مزوّدين بشعور وطني صادق. لكنهم هُزموا. ومن رماد الهزيمة انبعثت عنقاء الصبر والصلابة وعدم الاستسلام. والشاعر - في كل قصائده - ينعي هزيمة جيله، ويجسّدها، كما يجسد الغربة الوجودية والاجتماعية.

ولصلاح عبد الصبور قصيدة (مذكرات رجل مجهول)[2] تقنّع فيها بشخصية رجل مجهول، وعبّر من خلاله، عن زيف الحياة واليأس منها:

أصحو أحياناً لا أدري لي اسماً / أو وطناً، أو أهلاً
.. هذا يوم مكرور من أيامي / مكرور من أيام العالَم
ضاعت بسماتي / لم تنفعي فلسفتي / كسرتُ راياتي
... هل تدعوني وحدي؟ /.. أم تضعوني في لحدي؟

[1] علي الجندي - ديوانه: النزف تحت الجلد، اتحاد الكتّاب العرب - دمشق 1978.
[2] صلاح عبد الصبور - ديوانه - دار العودة - بيروت 1971، ص1 / 294.